

القومية العربية فى شعر شوقى

بقلم
الدكتور احمد محمد الحوفي

بحث قدم الى مؤتمر الادباء العرب الخامس
١٥ ـ ٢١ شباط ١٩٦٥
بغـــداد

مطبعة العاني ـ بغداد



القومية العربية في شعر شوقي

بقلم
الدكتور احمد محمد الحوفي

بحث قدم الى مؤتمر الادباء العرب الخامس
١٥ ـ ٢١ شباط ١٩٦٥
بغداد

مطبعة العاني ـ بغداد

ما كاد القرن التاسع عشر يتنفس صباحه حتى جعلت حماسة العرب الى الوحدة تتأجج ، وأخذت عقول مفكريهم ترسم الخطط وتدبر ، وشرع أدباؤهم يدعون الى الوحدة ، ويبشرون بها ، ويتلهفون على تحقيقها ، بعد ان انفصمت عرى الخلافة العثمانية ، وسارع العرب الى مجاهدة المحتلين ، ليتحرروا من اوهاق الاحتلال البغيض •

وكلما مرت السنون ازدادت الامة العربية شعورا بحاجتها الى تجمع مرهوب ، ووحدة قوية وفيه تجمع شتاتها ، وتقف في مهب الاعاصير العاتية كالطود الراسخ الاشم ، تتحطم قوى الاستعمار دون سفحه فترتد حسيرة مغلولة ، ويبقى الطود وطيد الاساس ، ثابت البناء ، ســـاخرا من اوهام الاعداء •

ولقد طالما جلجل شعراء العصر الحديث بالقومية العربية من الخليج الى المحيط ، حاملين على الاستعمار الذى خرب العـــــمران ، وقوض البنيان ، وقعد بالعرب عن مجاراة الزمن ، ونفث في قواهم سموم الضعف والانقسام ، وكاد ينسيهم ماضيهم وعزتهم الموروثـــة •

وحسبي أن أعرض بعض ما لشوقي من جهود في هذا المجـــال •

– ١ –

وحـدة اللـغة

١ – أثرها في الوحـــدة

تنبه شوقي الى أن اللغة أقوى رابطة في روابط القومية ، وأعظـم سبب في جمع شمل الامة ، لانها تتفاهم بها ، وتقرأ تراثهـا المشترك ، وتعبر عن مشاعرها ، ولانها سجل أدبها وافكارها .

ولهذا أيأس الترك من محـاولاتهم التعفية على القومية العـربية ، وتذويب العروبة في التركية ، لان اختلاف اللغة فجوة واسعة تفصـل ما بين القوميتين فصلا لا سبيل الى التئامه ، ونصح لهم أن يتعلموا العربية ، ويصطنعوهـا لغة ثانية لهم ، ليتقربوا الى العرب بوسيلة أخرى مع قربى الدين . قال في سنة ١٩٠١ :

شمل اللغات لدى الاقوام ملتئـم والضاد فينا بشمل غـير ملتئـم
فقربوا بيننا فيها وبينكـم فانها أوثق الاسباب والذمـم

ولم يكن شوقي خياليا في دعوته الترك الى أن يستعربوا ، أو الى أن يتعلموا اللغة العربية ليتدانوا الى العرب ، لانهم كانوا في عهدهم الاول يتعلمون اللغة العربية ويتـكلمون بها ، ويضعون مؤلفـات فيها ، مثل الفيروزابادي وابى السعود وملا خسرو والجامي وحاجي خليفة وابن كمال باشـا .

وكان بعض ملوكهم يدرسون العربية وآدابها كما يدرسون التركية وآدابها ، ومنهم من كان يروى الشعر العربي وينظمه كالسلطان أحمـد الاول .

ولم تضعف عناية علماء الترك باللغة العربية الا في عهد السلطان محمود الثاني وابنه عبدالمجيد الاول ، اذ احيوا اللغة التركية وسهلوا قواعدها ، وسموها اللغة العثمانية .

ولما ضرب الاسطول الفرنسي دمشق بمدافعه سنة ١٩٢٦ واسى شوقي سورية مواساة الاخ الوفي المتاع ، وبصر السوريين بدسائس المستعمر ومكره ، وأنار لهم طريق الجهاد بنصائحه ، ومهد لهذه النصائح بالبواعث التي دفعته الى النصح الخالص ، ليحسنوا الاصغاء ، ويحسنوا الاستجابة ، وكانت وحدة اللغة من هذه البواعث التي تربط قلوبهم بقلبه :

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا اذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق

وفي قصيدته التي شكر بها لمكرميه بدمشق سنة ١٩٢٥ توجيه العمل الجاد الدائب المثمر ، وحث على الحفاوة بالعلوم والاداب ، وحث على التآخي والاتحاد ، ثم تعزيز لهذا النصح بأنه صدى لحبه اياهم واخلاصه لهم ، لانهم اخوته جمعته عدة وشائج منها اللغة :

نصيحة ملؤها الاخلاص صادقة والنصح خالصة دين وايمان
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام إخوان

٢ ـ دفاعه عن اللغة

حينما نجحت المؤامرات الاستعمارية متوخية قطع الوشيجة الوثقى التي تربط العرب على اختلاف ديارهم ، وهي اللغة العربية الفصحى ، بايثار اللهجات المحلية عليها ، وباتهام الفصحى بالجمود والعجز عن مسايرة الحضارة الحديثة ، هب الشعراء يذودون عن الفصحى ما يراد بها من كيد ويبصرون العرب بما يبيت لهم من شر ، ودعوا قومهم الى الاستمساك

بوحدة لغتهم ، والاعتزاز بماضيها ، والفخار بما خلفته من تراث عظيم خالد ، وفندوا دعاوى الاعداء وأبطلوها •

من هؤلاء الشعراء شوقي ، فقد دافع عن الفصحى بانها ليست كالعامية في أن قدرتها منوطة بالتعبير السهل عن الشؤون العادية في البيت والسوق ، مع عجزها عن التعبير العلمي والادبي ، بل ان الفصحى وحدها هي القديرة على الافتنان الادبي ، وعلى جلاء التعبير العلمي ، وهو بهذا يرد على الذين اتهموها باطلا بالجمود والتخلف وزعموا أن العامية أكثر منها قدرة ومرونة •

ثم عزز حجته بان الفصحى لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وهما المصدران الاولان للتشريع الاسلامي ، وهما ذروة البلاغة العربية ، وارتباط الفصحى بهما يحيطها بهالة من العظمة والقداسة، فكيف يتهاون العرب في حمايتها من العدوان ؟ ولماذا لا ينهضون بها الى الاوج الذى تستعيد فيه حيويتها وقدرتها على مسايرة العلم والحضارة ؟

وأضاف الى هذا أنها لغة ثرية مرنة صالحة للتعبير عن حاجات كل عصر ، اذا ما لقيت من ابنائها حدبا عليها ، ورعاية لها ، واعتزازا بها •

ثم طالب الشاكين في هذه الحقيقة أن ينهضوا بانفسهم ، وان يرتقوا في سماء العمران ، فانهم سيجدونها تصاحبهم في صعودهم ولا تتخلف عنهم ، ومثل لهذا بأن يجعلوا عمرانهم روضة يانعة ، ليجدوا الفصحى تجرى جداول عذبة في هذه الروضة فتسقيها وتحييها ، ونهاهم عن ترقيعها بكلمات دخيلة مسروقة من لغات شتى ، لان الترقيع لا يجدي ولا يغني ، بل يشوه ويزري • ولم يفته ان يدلل على ثرائها بماضيها العريق في بغداد ودمشق والقاهرة والاندلس وفارس وغيرها ، اذ زكت أصولها ، وبسقت فروعها ، ونهضت بمقتضيات العصر في جميع المرافق ، ولم تقصر في شيء مما أراد أهلوها ، فمحت غيرها من اللغات ، واستقرت واستقلت محافظة على خصائصها وكيانها •

قال شوقي :

ان للفصحى زماما ويـــــدا   تـجْـنُـب السهل وتقتـاد الصعابـا
لغة الذكر لسـان المجـتـبـى   كيف تعيا بالمنادين جوابـا ؟
كل عصر دارها ان صادفـت   منزلا رحباً وأهلا وجنابـا
أنت بالعمران روضا يانعـا   وادْعُها تجر ينابيع عذابـا
لا تجئها بالمتـاع المقتنـى   سَرَقاً من كل قوم ونهابـا
سل بها أندلسا هـل قصـرت   دون مضمار الفلاحين أهابـا
غُرِسَتْ في كل ترب أعجـم   فزكت أصلا كما طابت نصابـا
ومشت مِشْيَتها لم ترتكـب   غير رجليها ولم تَحْجِل غرابـا

وردد هذه الفكرة في قوله يناجي الاسكندرية :

فخذي كأسس من الثقافة زينـة   وتجملي بشبابك النجبـاء
وتقلدى لغة الكتاب فانهـا   حجر البناء وعدة الانشـاء
بنت الحضارة مرتين ومهـدت   للملك في بغداد والفيحـاء
وسمت بقرطبة ومصر فنالتـا   بين الممالك ذروة العليـاء

وفي قوله :

ان الذي ملأ اللغات محاسـنا   جعل الجمال وسره في الضاد

وفي قوله مشيدا بالقرآن الكريم والحديث الشريف :

جاء النبيون بالآيات فانصرمـت   وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المـدى جُدُدٌ   يزينهن جلال العِتق والقـدم
يكاد في لفظة منه مُشَرَّفـة   يوصيك بالحق والتقـوى وبالرحم
يا أفصح الناطقين الضاد قاطبـة   حديثك الشهد عند الذائق الفهـم
حليت من عَطَلٍ جيد البيان بـه   في كل مُنْتَثِرٍ في صف منتظـم
بكل قول كريم أنت قائلـه   يحيى القلوب ويحيى ميت الهمـم

- ٢ -
الوجـــدان المشـــترك

يذكر علماء النفس وعلماء الاخلاق ان للوجدانات آثـارا عظيمـــة في حياة الانسان ، وسيطرة قومية على سلوك الافراد والجماعات، ويذكرون أن الوجدان المشترك هو المظهر الوجداني الاجتماعي ، كالشفقة عـــلى المصابين ، والحنو على الضعفاء ، ومقاسمة المتألمين آلامهم ، والمحبورين سرورهم • وهذه المشاركة الوجدانية هي المثير القوى لانفعالات المجتمع ، والدافع الاصيل لـكثير من أعماله ، كالذعر عند الخطر ، والغضب عند الاعتداء على الدين أو الوطن ، وهي أساس النهضات الاجتماعية ، والعامل الاقوى في توحيد الميول والعواطف •

وليست هذه المشاركة الوجدانية مقصورة على الانسان ، بل هـي واضحة في كثير من الحيوانات الراقية التي تميل بطبيعتهـــا الى التجمع ، فهي كما يقول العلامة (مكدوجل) تربط كل افراد الجنس الواحد من الحيوان معا ، وتوحد اعمالهم وتنظمها بطريقة تجعل منها جماعة قويـــة تعوض باتحادها في ميدان الجهاد للعيش ما ينقصها من الذكاء وحسن التصرف • وهذا هو السبب في أن اخراج اليعسوب ـ ملـكة النحل ـ من الخلية عنوة يحدث في نفس الدَّبْر ـ جماعة النحل ـ انفعالا شديدا ، فتنطلق من الخلية انطلاق السهام للبحث عن اليعسوب في كل مكان ، وكلما طال عليها الوقت تزايد هياجها ، وتعالى طنينها •

ويقول العلامة الامريكي (هولز) ان جماعة النحل والنمل وكثيرا من الحشرات يظهر عليها الغضب اذا غضب احدها ، فتجعل تتجمع ، وكلما زاد عددها ازداد غضبها ، فتتلف كل ما تجده في سبيلها ، حتى لا تبقى ولا تذر •

ويؤكد العالم الالماني (كهلر) أن صراخ قرد من الشمبانزي أو هجومه على انسان يكفي لاثارة غضب الجماعة فيثب افرادهـا من كل مكان للمشاركة في هذا الهجوم •

فلا غرابة اذاً في أن يكون الوجدان المشترك دعامة من دعائـم القومية العربية •

ولهذا الوجدان المشترك عدة مظاهر •

أ ـ التآلف والتعاطف

ليس من شك في أن للامة العربية وجدانها المشترك في احداثهـا العامة ،ممثلا فما تتجاوب به من أفراح أو أتراح ، ومن رضا أو سخط ، ومن قلق أو اطمئنان •

وهو في أعم حالاته وجدان حافز الى العمل ، سواء أكان هذ االعمل سخاء بالمال أو المقال ، أم للدماء ومشاركة في القتال ، أم سـخطا على المستعمر وتشنيعا بمظالمه وحضا على الثأر منه ، وعلى تحطيم اغلالـه ، أم مشاركة في الزهو والفخار ، أم مجاوبة في الفرح والابتهاج •

ولقد برع شوقي في تصوير الوجدان المشترك تصويرا جمع بـين الصدق الواقعي والصدق الفني في قصيدته التي حيا بها مبايعيه بامارة الشعر من أقطار العروبة سنة ١٩٢٧ ، اذ وصف المهرجان بانه عكاظ واجتمعت فيه العروبة ـ التي عبر عنها بالشرق على نهج كثير من الشعراء ـ ثـم ختم القصيدة بتصوير الامة العربية جسدا واحدا اذا اشتكى عضو منـه تداعت له سائر الاعضاء بالسهر والالم ، فاذا تأوه بالعراق جريح أمسك اخوته في الوطـن العربي جنوبهم ، كناية عن الالم الشديد الذى يضطر المتألم الى هذه الحركة ، وعرض شوقي لبعض ما يتصل بوحدة الشعور بالآلام من مظالم الاستعمار ، والتنكيل بالاحرار ، والجهاد للاخلاص ،

فقال :

ياعكاظا تألف الشـــرق فيـه | من فلســطينه الى بغــداده
شـرّفتْ مصر بالشموس من ا | لشرق نجوم البيان من أعيانــه
رب جـــار تلفتت مصــر توليــه ســؤال الكريم من جيرانه
بعثتنـــي معـــزيا بما قـــي | وطني أو مهنئــا بلســـانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجـــر | ح وأن نلتقي على أشــجانه
كلمان أنَّ بالعـــراق جريــــح | لمس الشرق جنبه في عمانـه
وعلينا كما عليـــكم حديـــد | تتنزى الليوث في قضبانـــه
نحن في الفكر بالديار ســـواء | كلنا مشـــفق على أوطانـــه

وأغلب الظن أن علي الجـــارم أعجبه فصله وأضاف اليه خطوطا وألوانا وأبعادا ومعالم ، وصور المشاعر مشتركا بين الجمادات والنباتات ، غير مقصورة على الاناسي ، ليؤكد انها بينهم قوية غاية القـــوة ، لانها استجابة للفطرة لا تزول ولا تحول .

قال الجـــارم :

تذوب حشاشات العواصم حسرة | اذا دميت من كف بغداد إصبـــع
ولو صُدّعَتْ في سفح لبنان صخرة | لدك ذرا الاهرام هذا التصـــدع
ولو بردى أنت لخطب مياهـــه | لسالت بوادي النيل للنيـل أدمـع
ولو مس رضوى عاصف الريح مرة | لبانت له أكبـــادنا تتقطـــــع

وقال في قصيدة أخرى :

اذا مست البأساء أذيـــال دجلـــة | قرأت الاسى في صفحة النيل والكمدا
وان طُرِفَت عين ببغداد من قذى | رأيت بمصرٍ أعينا مُلِئَت سـهدا

وقال في قصيدة ثالثة :

بغداد يا بلد الرشـــيد | ومنـارة المجـــد التليـــد
اهلوك أهلونا وأبنـــا | ء العشــيرة والجـــدود
بين القلوب تشـــوف | كتشوف الصب العميـد

حتى يكاد يحب نخلك نخل أهلي في رشيد
الرافدان تمازجا في الحب بالنيل السعيد
وتعانق الظلان ظل الطاق والهرم المشيد

ب ـ فظائع الاستعمار

هب العرب الاحرار يناضلون الاستعمار ، مفتدين وطنهم بالدماء والارواح متسابقين الى ميادين الكفاح ، غير آبهين بجنود العدو الكثيرة واسلحته الموفورة ، ووحشيته المسعورة •

وحينما كان يستشهد بعضهم في الجهاد ، أو تضرب مدنهم بالقنابل ، يهيج أخوانهم في الاقاليم الاخرى ، ويشاركونهم في الاسى والسخط على العدو الغاشم •

ولشوقي في هذا المجال صوت طالما دوى وجلجل •

فلما ضرب الاسطول الايطالي بيروت سنة ١٩٢١ والحرب قائمة في طرابلس بين العرب والايطاليين ، قال شوقي قصيدة صور فيها الابطال الذين قتلتهم القنابل أسودا ماتوا غدرا في غير معركة ، فليس لايطاليا أي فخر في قتلهم ، لان الليث المقيد يسهل صيده أما الليث الطليق فان صيده مرهوب •

وحزن شوقي على دماء الأبطال التي سالت حول المساجد والكنائس والدور ، تمنى لو طال العمر باصحابها ليذودوا عن الحمى ، وصور أسى المصريين مما نزل باخوتهم اللبنانيين بكوا بيروت بدموع لو استطاعوا أن يغسلوا جراحها لفعلوا ، ولكنه عبر عن المصريين بانهم (جيرة) بيروت ، ولو انه قال (اخوة) لاصاب الحقيقة :

بيروت مات الاسد حتف أنوفهم لم يشهروا سيفا ولم يحموك
سبعون ليثا أحرقوا أو أغرقوا ياليتهم قتلوا على (طبروك)

كل يصيد الليث وهو مقيــد — ويَعزُ صيد الضيغم المفكــوك

يا مَضرِب الخيَم المنيفة للقِرى — ما أنصف العَجم الالى ضربــوك

ما كنت يوما للقنابل موضعــا — ولو أنها من عسجد مسبــوك

سالت دماء فيك حول مساجد — وكنائس ومدارس وبنــوك

كنا نؤمل أن يُمَدَّ بقاؤهــا — حتى تبل صدى القنا المشبــوك

لك في ربا النيل المبارك جــيرة — لو يقدرون بدمعهم غسلوك

ولما ثارت سورية على الحكم الفرنسي سنة ١٩٢٥ ثورتها الباسلة التي استمرت سنتين ، وضرب الفرنسيون دمشق بمدافعهم في مايو سنة ١٩٢٥ التهبت عواطف شوقي وجزع مما أصابها ، ومجد ماضيها وحاضرها ، وصور عزازتها عليه وعلى الامة العربية ، وحزن لما أحدثه الفرنسيون بآثارها الخالدة ، واستنكر وحشيتهم ، وحمل عليهم وندد بهم ، لانهم تنكروا لاصول ثورتهم التي زعموا أنها كانت أول هتاف بالحرية والاخاء وندد بهم ، لانهم تنكروا لاصول ثورتهم التي زعموا أنها كانت أول هتاف بالحرية والاخاء والمساواة ، وندد بطيش القائد الفرنسي ، ووصفه بأنه أحمق غاشم كان حربا على فرنسا بما جنى ، وبما جر عليها من سبة وسوء سمعة ، ثم انذر فرنسا بأن السوريين لابد أن ينالوا حريتهم ، وبأن وحشيتها غذاء لحماستهم ، لان شهداء الجهاد خالدون ، وذكراهم تؤرث النضال .

وختم القصيدة بتشجيع السوريين على الجهاد ، ونصحهم بأن يحذروا خدع فرنسا ، لانها تحاول ان تصرفهم عن الاستقلال بأوهام خداعة كالدولة السورية ، ولبنان الكبير ، ودولة جبل الدروز ، وحكومة العلويين ، وبألقاب توهم بالملك والسيادة وهي في حقيقتها ذل واستعباد ، وصور لهم الحرية حصنا لا يقرع بابه الا المجاهدين المصبوغة ايديهم بدماء الجهاد .

ولقد غاظت القصيدة فرنسا ، فمنعت شوقي أن يزور المغرب الذى كان خاضعا لها حينئذ :

سلام من صبا بردى ارق ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق
وذكرى عن خواطرها لقلبي اليك تلفت أبدا وخفق
وبى مما رمتك به الليالى جراحات لها في القلب عمق
لحاها الله أنباء توالت على سمع الوليّ بما يشق
تكاد لروعة الاحداث فيها تخال من الخرافة وهي صدق
وقيل معالم التاريخ هدت وقيل أصابها تلف وحرق
ألست دمشق للاسلام ظئرا ومرضعة الابوة لا تعق ؟
صلاح الدين تاجك لم يجمل ولم يوسم بأزين منه فرق
وكل حضارة في الارض طالت لها من سرحك العلوى عرق
بنيت الدولة الكبرى وملكا غبار حضارتيه لا يشق
له بالشام اعلام وعرس بشائره بأندلس تُدق
سلى من راع غيدك بعدوهن ابين فؤاده والصخر فرق ؟
وللمستعمرين وان ألانوا قلوب كالحجارة لا ترق
رماك بطيشه ورمى فرنسا أخو حرب به صلف وحمق
اذا ما جاءه طلاب حق يقول عصابة خرجوا وشقوا
دم الثوار تعرفه فرنسا وتعلم انه نور وحق
وحررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق ؟
بنى سورية اطرحوا الاماني وألقوا عنكم الاحلام ألقوا
فمن خدع السياسة ان تغروا بألقاب الامارة وهي رق
وقفتم بين موت أو حياة فان رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللاوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يدنى الحقوق ولا يُحق
ففي القتلى لاجيال حياة وفي الاسرى فدى لهم وعتق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

ج ـ رثـاء المجاهدين

أمة واحدة في وطن واحد •

أمة وفية لأبطالها المجاهدين وعظمائها الراحلين •

وشعراؤها كلفون بالبطولة وبالمجد ، تياهون بالابطال والمجاهدين ، فمن الطبيعي أن يكون الشهيد في اقليم عربي شهيد الوطن العربي كله ، وأن يكون العظيم في بلد عربي عظيما في نظر العرب أجمعين •

ولهذا تجاوب الشعراء برثاء الزعماء والقادة والشهداء والعظماء •

وكان شوقي من السابقين في هذا المجال •

فلما احتفلت سورية بذكرى استقلالها سنة ١٩٢٨ ، مجد شوقي شهداءها ، واختص بطلها يوسف العظمة بالاشادة ، وقد كان يوسف وزير الحربية في حكومة فيصل بن الحسين بعد فتح سورية بقيادة فيصل ، واستطاع يوسف بعد المناداة بفيصل ملكا على سورية ان ينظم جيشا وطنيا من عشرة آلاف مقاتل • فلما اعلن الحلفاء في مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠ فرض الانتداب على سورية ، وتحرك الجنرال غورو ليحتل دمشق ، نهض يوسف العظمة لصده ، وكانت موقعة ميسلون التي ابلى فيها العرب أعظم بلاء ، واستشهد فيها يوسف ، فكان من طلائع شهداء الحرية والعروبة •

صور شوقي قبر يوسف العظمة يهتف بالجهاد للثأر له من الفرنسيين، ونوه ببطولته في مناضلة الجيش الفرنسي الباغي المستظهر بطياراته ودباباته ، وكيف استهان بها يوسف ، وثبت في مكانه كالطود ، حتى استشهد أبيا في ميدان الشرف ، مبكيا من المسلمين والنصارى جميعا :

سأذكر ما حييت جدار قبر … بمظاهر جِلَّقٍ رَكِبَ الرمالا
مقيم ما اقامت ميسلون … يذكِّر مصرعَ الاسد الشبَّالا
لقد اوحى اليَّ بما شجاني … كما توحي القبور الى الثكالى
تغيب عظمة العظمات فيه … واول سيد لقي النبالا
ترى نور العقيدة في ثراه … وتنشق من جوانبه الخلالا

ملأن الجو أسلحة خفافـــا ووجه الارض اسلحة ثقـــالا
وأرسلن الرياح عليه نـــارا فما ضل الجنوب ولا الشمالا
اقام نهاره يُلقِي ويَلقَـــــى فلما زال قرص الشـــمس زالا
وطاح ترى به قيد المنايـــا ولست ترى الشكيم ولا الشكالا
فكفن بالصوارم والعوالـــي وغيب حيث جال وحيث صـــالا
اذا مرت به الاجيـــال تـــترى سمعت لها ازيزا وابتهـــالا
تعلق في ضمائرهم صليبـــا وحلق في سرائرهم هـــلالا

ورثى الزعيم السوري فوزي الغزي سنة ١٩٣٠ ، وبكى فيه بطلا عربيا كان يذود عن الوطن كما زاد اسلافه من بني عبد شمس وبني أمية ، وختم القصيدة بدعوة المجاهدين ان يرعوا وحدتهم ، واستحلفهم بالله وبمحمد وبعيسى وبالغزى ان يعتصموا بالوحدة ، لان خروج واحد من الصف قد يحبط التدبير المحكم ، والتفكير السديد ، والجهاد المظفر :

جرح على جرح حنانك جلق حُمِّلت ما يوهى الجبال ويرهق
....
يا مأتما من عبد شمس مثلـــه للشمس يُصنع في الممات ويُنسَق
ان ضاق ظهر الارض عنك فبطنها عما وراءك من رفات أضيـــق
لما جمعت الشام من اطرافـه وافى يعزى الشام فيك المشرق
يبكى لواء من شباب أميـــة يحمى حمى الحق المبين ويخفق
مَن مبلغٌ عنى شبولة جلـــق قولا يبَرُّ على الزمان ويصـــدق
بالله جل جلاله بمحمــــد بيسوع بالغزى لا تتفرقـــوا
قد تفسد المرعى على اخواتهـــا شاة تند عن القطيـــع وتمـــرق

ورثى سنة ١٩٣٠ الحسين بن علي زعيم الثورة العربية على الاتراك ، واحسن الاعتذار له عن مهاجمته من قبل ، لانه تبين ان الحسين مناضل

كان يأمل تحرير العرب ، ولكن الاستعمار خدعه :

قد بعثت القضية اليوم ميتـــا   رب عظم أتى الامـــور العظائـــم
أنت كالحق ألَّفَ الناس يقظا   ن وزاد ائتلافهـــم وهـــو نائـــم
حبذا موقف غُلبتَ عليـــــه   لم يقفه للعرب قبلـــك خـادم
ذائدا عن ممالك وشـــــعوب   تُنقَلَت في الاكف نقل الدراهـــم
كل ماء لهم وكل ســـــماء   موطن الخيل او مطار القشاعم

ورثى للشهيد عمر المختار ، بطل طرابلس الذي لقي الايطاليين في عشرات المواقع ، فلما قبضوا عليه اعدموه سنة ١٩٣١ ولم يعطفهم عليه ما عرفوا من بطولته وشغفه بوطنه ، ولم يرحموا سنه التي نيفت على التسعين .

وقد حمل في مرثيته على ايطاليا ، وانذرها بثأر اشد وانكى ، وصور رفات الشهيد المواراة بالثرى كنزا من الحماسة المتقدة ، يستنهض العرب في كل وقت أن يثأروا لشهيدهم ، وان يقتدوا بجهاده ، وأيقن انهم سيورثون ابناءهم بغضهم للايطاليين والدأب على نضالهم ، حتى يطردوهم من ديارهم ، ثم ختم القصيدة بنصائح اختص بها الشباب الليبي :

ركزوا رفاتك في الرمال لـــــواء   يستنهض الوادي صبـاح مسـاء
ياويحهم نصبوا منارا مـــــن دم   يوحى الى جيل الغد البغضـــــاء
جرح يصيح على المدى وضحيـــة   تتلمس الحرية الحمـــــراء
افريقيا مهد الاسود ولحدها   ضجت عليك أراجلا ونســـاء
والمسلمون على اختلاف ديارهم   لا يملكون مع المصـــاب عـــزاء
والجاهلية من وراء قبورهـــم   يبكون زيد الخيل والفلحـــاء
لبى قضاء الارض امس بمهجـــة   لم تخش الا للسماء قضـــــاء
وافاه مرفوع الجبين كانـــــه   سقراط جر الى القضـــاة رداء
وأتى الاسير يجر ثقل حديـــده   اسد يجرر حية رقطـــــاء
عضت بساقيه القيود فلم ينـــوء   ومشت بهيكله السنون فنـــاء

د ـ الفرح المشترك

كانت اهازيج البهجة في اقليم من الوطن العربي تتجاوب بها بقية الاقاليم ، وكثيرا ما صور الشعراء افراح العرب المشتركة ، وابتهجوا بها •

فحينما احتفلت سورية سنة ١٩٢٨ بعيد استقلالها حياها شوقي بقصيدة اشاد فيها بالاحياء من الاحرار وبالشهداء والابطال ، ونوه بما بين مصر وسورية من اخاء ومن ضيق بقيود الاستعمار :

بنى البلد الشقيق عزاء جـــار ... اهاب بدمعه شجن فســالا
قضى بالامس للابطال حقـــا ... واضحى اليوم بالشــهداء غالي
يعظم كل جهـد عبقــري ... اكان السلم ام كان القتـالا
وما زلنا اذا دهت الرزايــا ... كأرحم ما يكـون البيت آلا

ثم حضهم على الاتحاد والعمل الدائب في السلم وفي الحرب ، ودعاهم الى الاعتصام باخاء المسلمين والنصارى ، والى الحرص على التئام الشمل ، وذكرهم بوعود الاستعمار الخادعة وعهوده المنقوضة ، ليأخذوا حذرهم :

بنى سورية التئموا كيــوم ... خرجتم تطلبون به النـــزالا
سلوا الحرية الزهراء عنـــا ... وعنكم هل أذاقتنا الوصــالا ؟
وهل نلنا كـــلانا اليـــوم الا ... عراقيب المواعد والمطـــالا ؟
عرفتم مهرها فمهرتموهــــا ... دماً صبغ السباسبَ والدّغالا ؟
دَعُوا في الناس مفتونا جبانـــا ... يقول : الحرب قد كانت وبــالا
وكونوا حائطا لا صدع فيـــه ... وَصفًا لا يُرَقَّع بالكســالى
وعيشوا في ظلال السـلم كـدا ... فليس السلم عجزا واتكـــالا

— ٣ —

التاريخ المشترك

لم يكن عن مصادفة هذا الفخار الكثير في الشعر الحديث بتاريخ العرب المجيد وحضارتهم العريقة ، وتراثهم المشرق ، وعظمائهم وأبطالهم •

ولم تكن الاشادة بهذا مظهرا من مظاهر الاقتدار على المعارضات الشعرية ، او تدريب القرائح على التجويد ، بل كان عملا مقصودا صادرا عن عواطف قوية صادقة نبيلة •

ذلك ان العرب افاقوا في أواخر القرن التاسع عشر ، فاذا اعداؤهم ينتقصون اقدارهم ، ويستولون على بلادهم ، ويحاولون ان يطمسوا معالم مجدهم ، ويرخوا استارا كثيفة صفيقة بينهم وبين ماضيهم العريق الحافل بالعظمة والعظماء ، على حين ان هؤلاء الاعداء يحرصون اشد الحرص على التنويه بتاريخهم هم وبعظمتهم وعظمائهم ، ليضعفوا ثقة العرب بأنفسهم •

أفاق العرب على هذه الخدع التي حاكها الاستعمار ، فهبوا سراعا الى إبطالها واحباطها ، فأحيوا تاريخهم المجيد ، واشادوا بحضارتهم الزهراء ، ونوهوا بأسلافهم الذين سموا في كل ناحية من نواحي الحياة ، ليصدوا الدعاوى الاجنبية عن العقول والقلوب ، وليضاعفوا ايمان العرب بانفسهم ، وانهم اهل لان يسودوا كما ساد آباؤهم ، واهل لان ينبغوا كما نبغ اسلافهم ، وليبينوا ان الضعف الذي يعانون جرائره ليس طبيعة فيهم ، بل هو طارىء موقوت ، مناهم به الانقسام والاستعمار والتحلل من المثل العليا التي سنها لهم دينهم ، وارسى قواعدها اجدادهم ، وهم لا يلبثون ان ينهضوا الى ذروة العلا والقوة والمجد اذا ما عرفوا قدر انفسهم ، واهتدوا بالقيم النفيسة السامية التي خلفها لهم سابقوهم •

وقد سلك المستنيرون والقادة الى احياء المجد القديم مسالك متنوعة ، كان الشعر من ابرزها •

فاذا ما رجعنا الى شوقي استرعى نظرنا انه كثيرا ما لهج بماضـي العرب المجيد ، واشاد بحضارتهم وتراثهم وابطالهم وعظمائهم ، بقصد بعث العزائم على رفض الذل ، والانفة من الاستعمار ، والاقتداء بالاجداد الذين كانوا سادة العالم وزينة الارض ، والمثل العالية في القوة والبطولة والعلم والحضارة ومكارم الاخلاق ، فانه لا يحفز الامم على النهوض مثل الجهاد الدائب لاستعادة مجدها الذاهب •

فهو يصف العرب بأنهم امة البيان والعلوم ، سادوا العالم ، وكانوا اساتذته احقابا طوالا ، وكان الحق والعدل والحرية والخير والعلم ترافق فتوحهم حيثما حلوا ، فهم الذين حملوا معهم تعاليم الاسلام الى كل اقليم نزلوا به ، فطبوا البشرية من امراضها ، وسنوا لها أسمى النظم في العقيدة والتشريع والتفكير والاجتماع والحكم وسائر ما يتصل برقي الافـراد والجماعات • وليس للبشرية دواء ناجع يقيها ويعالج ادواءها غير الاسلام ، بما قضى من عقائد وتشريع ونظم يقتبس منها اتباعه وغير اتباعه ، وهي نظم يجد فيها المصلحون بغيتهم ، ويجد فيها العلماء والباحثون طلبتهم •

ثم استنكر شوقي من الاعاجم ابناء الخصب والظل والنعيم والترف ان يتعجبوا من ان تخرج الصحراء عباقرة في السياسة والعلوم ، وان ينطلق من الخيام افذاذ في الحروب وقيادة الجيوش استطاعوا في زمـن قصير ان يدكوا عرش كسرى وقيصر ، وان يقيموا حكما اساسه العدل والحرية والرخاء والخير للمحكومين :

أمة ينتهى البيان اليهـا وتئول العـلوم والعلمـاء
جازت النجم واطمأنت بأفـق مطمئن به السنا والسنـاء
كلما حثـت الركاب لأرض جاور الرشد اهلها والذكـاء
وعلا الحق بينهم وسـما الفضـل ونالت حقـوقها الضعفاء
تحمـل النجم والوسيلة والميـزان من دينها الى من تشـاء

فيه ما تشتهي العزائم ان هم ... ذووها ويشتهي الاذكياء
ايرى العجم من بنى الظل والما ... ء عجيبا ان تنجب البيداء ؟
وتثير الخيام آساد هيجا ... ء تراها آسادها الهيجاء

ثم وقف على آثار العرب بالاندلس ، فغالبه البكاء اذ استرجع تاريخهم الوضاء هنالك ، فترقرق الدمع في عينيه ، ولكن ثناه عن البكاء وعن انحدار الدمع اجلاله لاجداده الاباة ، الذين لم يخضعوا الا لله ، ولم يبكوا الا في صلاتهم وضراعتهم لله ، وهو بهذا التصوير يضعهم في ذرا العزة والكرامة والاباء في علاقتهم بالاقوياء من الناس ، ويصفهم بالتدين وحب الله والخشية من عقابه والانقياد له ، ثم يعقب على هذا بانهم سادوا العالم ، معتمدين على دينهم ، وعلى اخلاقهم التي اشتهروا بعلائها قبل اسلامهم :

رسم وقفنا على رسم الوفاء له ... نجيش بالدمع والاجلال يثنينا
لفتية لا تنال الارض ادمعهم ... ولا مفارقهم الا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة ... للناس كانت لهم اخلاقهم دينا

وكذلك ناجى بني امية في دمشق ، فمجدهم ، وباهى بفتوحهم وقوتهم في الشرق وفي الاندلس :

قم ناد جلق وانشد رسم من بانوا ... مشت على الرسم احداث وازمان
هذا الاديم كتاب لاكفاء له ... رثُّ الصحائف باق منه عنوان
الدين والوحي والاخلاق طائفة ... منه ، وسائره دنيا وبهتان
بنوا امية للانباء ما فتحوا ... وللاحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا ؟

ثم كرر الفخار في قصيدة اخرى ، وصف فيها دمشق بانها ظفر للاسلام ربت كثيرا من رجالاته ، وحسبها من العظمة انها مثوى رفات

صلاح الدين ، وانها كانت عاصمة الامويين الذين مهدوا للدولة العباسية في الشرق ، واسسوا الدولة الاموية في الغرب ، فكانوا اساسا لحضارة هؤلاء وهؤلاء ، واذ كانت حضارة العباسيين والاندلسيين ذات اثار عظيمة في حضارة الامم الغربية ، فان للامويين اذاً فضلا على هذه الحضارات لا ينكر :

الست دمشق للاسلام ظئرا ومرضعة الابوة لا تعق ؟
صلاح الدين تاجك لم يُجمل ولم يوسم باجمل منه فرق
وكل حضارة في الارض طالت لها من سرحك العلوى عرق
سماؤك من حلى الماضي كتاب وارضك من حلى التاريخ رق
بنيت الدولة الكبرى وملكا غبار حضارتيه لا يشق
له بالشام اعلام وعرش بشائره باندلس تدق

وقال في قصيدة اخرى :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببنى العباس بغدان

على ان له ديوانا مستقلا في (دول العرب وعظماء الاسلام) ، واربع مدائح نبوية اشاد فيها بعظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالشريعة الاسلامية ورجالات العرب •

وله قصيدة في تمجيد العرب بالاندلس وبكاء حضارتهم ، مطلعها :
اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لي الصبا وايام انسى

وله موشح في صقر قريش عبدالرحمن الداخل ، مطلعه :

من لِنضوٍ يتنزى ألما برح الشوق به في الغلس
حن للبان وناجى العلما ابن شرق الارض من اندلس ؟

كما نجد في ديوانه ابياتا كثيرة تنوه بعظمة العرب مثل الابيات التي

في قصيدته (كبار الحوادث في وادي النيل) ، والابيات التي في قصيدته (أيها النيل) • فهو في اشادته بالعرب الذين فتحوا مصر يصفهم بالشجاعة المقترنة بمكارم الاخلاق ، لانهم يجاهدون ليحقوا الحق ويزهقوا الباطل ، فلا بغي ولا جبروت ولا استعمار ولا استئثار بخيرات البلاد ، وبانهم كانوا المثل الاعلى في التسامح والعدل والمساواة ولم يكونوا اصحاب أبهة واستعلاء ، ويرسم صورة رائعة لعمرو بن العاص والي مصر وهو جالس على حصير كما يجلس الناس ، وحوله ابهة روحانية من دينه واخلاقه تفوق ابهة الملك المتوج ، وهو موئل الخائفين ، وملاذ المستضعفين ، ثم يؤكد عدله بأن النصارى واليهود احبوه ، ودعوا له في كنائسهم وبيعهم ، لانه انقذهم من اهوال الرومان ومظالم البيزنطيين • قال شوقي في مناجاة النيـل :

وودائع الفاروق عنـدك دينـه	ولواؤه وبيانـه والمنطـق
بعث الصحابة يحصلون من الهدى	والحق ما يحيي العقول ويفتق
احلاس خيل بيدَ ان حسامهم	في السلم من حذر الحوادث مقلق
تطوى البلاد لهم وينجد جيشهم	جيش من الاخلاق غاز مورق
في الحق سُلَّ وفيه أغمد سيفهم	سيف الكريم من الجهالة يفرق
والفتح بغيٌ لا يهون وقعه	الا العفيف حسامه المترفق
ما كانت الفسطاط الا حائطا	يأوى الضعيف لركنه والمرهق
وبه تلوذ الطير في طلب الكرى	ويبيت قيصر وهو منه مؤرق
عمرو على شطب الحصير معصب	بقلادة الله العلى مطوق
يدعو له الحاخام في صلواته	موسى ويسأل فيه عيسى البطرق

ويتحدث شوقي عن بطولة صلاح الدين وحمايته للمسلمين وتحريره الوطن العربي من الصليبين اذ انتصرت عليهم موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) • وعن انتصار توران شاه على لويس التاسع ملك فرنسا والقبض عليه واسره في موقعة المنصورة سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) ثم اطلاقه

بفدية ، لا لان مصر أغرتها الفدية ، او كانت محتاجة اليها ، بل لانها اطمأنت الى انه صار بعد الهزيمة والاسر لا يخشى له بأس . ثم ختم شوقي ابياته بالعظمة البالغة من هذه الاحداث ، وهي ان العرب كانوا أصحاب هذه الاخلاق العظيمة التي أراد الاستعمار تشويهها ، وباخلاقهم هذه سادوا وشادوا وخلدوا انباء يتناقلها التاريخ في زهو بهم وفخار :

يعرف الدين من صلاح ويدري   من هو المسجدان والإسراء
انه حصنه الذي كان حصنا   وحماه الذي به الاحتماء
يوم سار الصليب والحاملوه   ومشى الغرب قومه والنساء
يضمرون الدمار للحق والنا   س ودين الذين بالحق جاءوا
وَيَهُدُّون بالتلاوة والصلبان   ما شاد بالقنا البناء
فتلقتهم عزائم صدق   نُصَّ للدين بينهن خباء
مزقت جمعهم على كل ارض   مثلما مزق الظلام الضياء
وسبت أمرد الملوك فرته   وما فيه للرعاية رجاء
ولو ان المليك هيب اذاه   لم يخلصه من أذاها الفداء
هكذا المسلمون والعرب الخا   لون لا ما يقوله الاعداء
فيهم في الزمان نلنا الليالي   وبهم في الورى لنا أنباء

واذ خايل شوقي بمجد العرب ، واشاد بابطالهم ، ونوه بفضلهم على العالم كله ، لم يغب عنه ان يعيس الحاضر المتخلف الى هذا الماضي السباق ، فيشتد به الاسى ، وتغالبه الحسرة ، ولكن حسرته لم تكن استسلاما أو استكانة أو قناعة بحسب الآباء والاجداد ، بل هي وفاء للماضي واعزاز ، وتبصير بما بينه وبين الحاضر من بون شاسع ، ليحفز العزائم الى العمل الدائب ، وتحطيم قيود الخور والهوان ، فقد بكى حضارة الاندلس في سينيته ، وبكى عزة العرب في مناجاته لدمشق في نونيته ، وحسبنا من بكائه قوله :

بنو أمية للانباء ما فتحوا وللاحاديث ما سادوا وما دانوا
ياويح قلبي مهما انتاب أرسمهم سرى به الهم او عادته اشجان
بالامس قمت على (الزهراء) أندبهم واليوم دمعي على (الفيحاء) هتان
مررت بالمسجد المحزون أسأله هل في المصلى او المحراب مروان ؟
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر احرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته اذا تعالى ولا الآذان آذان

هكذا كان شوقي يصدح بالعروبة ، ويحمي ذمارها ، وهكذا كان شوقي يتغنى للقومية العربية ، ويعلي منارها ، فليته عاش حتى يراها اليوم وهي تشق طريقها لتحقق ما كان يرجوه لها .